الأحـــزاب

حُيَـيّ بن أخْطب زعيمُ بني النَّضير، وعظيمٌ من عظماء اليهود، وهو الآنَ منبوذ طَرِيد، منفيّ شَرِيد، يُقيمُ في أرض خَيْبَر، مَهِيضَ[1] الجَنَاح، مُغْمَد السلاح، ذليل الرأس، وَقِيذ ما بين الجَوَانح.

ومُذْ أجْلاَهُ رسول الله ﷺ مع قومه عن المدينة، جزاءً وفاقاً لما ارتكبوه من نَكْثٍ في العهد، وحنثٍ في اليمين لا يزالُ عليه حَنِيقاً، مُوغَرَ الصَّدْرِ، مُلْتَاعَ الفؤاد، يتربَّص به الدوائر، ويتَوَقَّع للمسلمين غائلة السوء؛ ويودّ لو انتصر الكافرون، وتخاذَلَ المسلمون، ويودّ لو يهلكُ رسول الله ﷺ بالمدينة. فيستطيع أن يعودَ إلى وطنه، وأن ترجعَ إليه في قومِه سابقُ زعامتهُ، ولكنهُ ـ لِعَثَار جدّه[2]، ولما كتبَهُ الله له أن يموتَ بغيظه ـ لا يسقط في أذنه إلا ما يكْرَههُ من نُصْرَة المسلمين، وهزيمة الكافرين، فيغضّ بريقه، ويتسعَّر في غيظه، ويتأوَّهُ من آلام الحقد والحسد، كما يتأوّه السليم.

وصاحبُ الثأر لا يسكُتُ عن وِترِه، والمنفيّ أبداً يحِنُّ إلى وطنه؛ ثم هو يتعلَّق بالرَّثِّ[3] البالي من الآمال، ويجري ورَاءَ ما يدهن له الوهم من مَعْسول الخيال.

ولقد أصبح حُيَـيّ يوماً على زعمٍ زخْرَفَه له الشيطانُ، وَوَهْم زينته له خَوَادِعُ الآمال أن يجمع إليه نَفَراً من قومه ممن جَلَوْا عَن أوطانهم، وأكلَ الحقْدُ قلوبهم، ويُحَزِّبُوا[4] على محمد ـ ﷺ ـ أعداءه، فهم كُثر ويؤلِّبُوا عليه القبائل جميعاً؛ فهم منه على وتْر... ومَنْ يَدْري؟ لعل محمداً تذهبُ دَوْلتُهُ، وتسكُن حركته، ويعودُ أمرهم من الزعامة والعزَّة كما كان.

---

(١) هاض فلانٌ الشيء: كسره، مهيض: مكسور.
(٢) الجَدُّ: الحظ.
(٣) رثَّ: بَلي فهو رثٌّ.
(٤) يحزِّبون: يشكِّلون الأحزاب.

وجمع حُيَيّ على هذا الزعم سَلاّم بن الحُقيْقِ، وكنانة بن الربيع، وهما من بني النضير، وهَوْذة بن قيس، وأبا عمار؛ وهما من وَائل، ونَفراً غير هؤلاء ممن ذهب مَذْهبهم، وانطلقوا إلى قريش.

قالت لهم قريش: يا معشرَ يَهود، دَعْونَا مما جئتُم فيه الآن، وأخبرونا عما نسألكُم عنه. إنكُم أهلُ الكتاب الأول؛ وإليكُم ينتهي عِلْمُ ما نختلف فيه، وقد أصبحنا في أمرنا على ريبة، ومن ديننا في شكّ؛ فماذا ترون؟ أدينُنا خَيْرٌ أم دينه؟ وآلهتنا حَقّ أم إلٰهه؟

قالوا لهم: أأنتم في شكٍّ من دينكُم؛ وفي ريب من عقائدكم! تالله إنَّ دينكُم لَلْحَقُّ. وإن دين محمد لَلخُرَافة، وإن آلهتكُم لهي التي تضرُّ وتنفع، وتُعْطِي وتمنعُ، وإن إلٰهه لا يدفع شراً، ولا يجلبُ خَيْراً، فحذار أن يدخُلَ الشكُّ إلى نفوسكُم، أو يجري الظنُّ إلى عقائدكم؛ فلا تَتَقَاعَسُوا[1] عن مناهضته[2]، ولا تَعْدِلُوا عن مُحَاربته، وسنجمعُ عليه معكُم القبائل ونَدْعُو العرب: سنُحَرِّضُ غطفان ونُهيب بأشْجَع، ونَدْعُو بني قُرَيظة، وباتِّحادكم مع هؤلاء وهؤلاء لا تَدَعُون شأنَ محمد يرتفعُ أبداً.

ثم ذهبوا إلى غطفان وحَرَّضوهم، فوجدوا للتحريض عندهم مَرْتَعاً خَصِيباً، وذهبوا إلى أشجع، فوجدوا عندهم صَدْراً رحيباً، ثم انطلقوا بعد ذلك إلى بني قُرَيظة.

وكانت بنو قُرَيظة تُسَاكِنُ رسول الله ﷺ بالمدينة على عَهْدٍ بينهم وبينه: ألاّ يُحَاربهم ولا يحاربوه، وأنْ يُهادنهم وَيُهادِنُوه، وأن يكونوا بعد ذلك على غيرهم أحلافاً. وظلُّوا قائمين على العَهْدِ، حافظين للميثاق، حتى وفد عليهم حُيَيّ بن أخْطب ومعاوِنُوه.

وسَمِعَ بمجيئهم كَعْب بن أسد القُرظيّ ـ وكان رئيسَهم ـ فقال لقومه: لم يَقْصِدكمُ هؤلاء إلا لشرّ؛ غَلِّقُوا أبوابكُم، وصُمُّوا آذانكم، فوالله ما يدفعونكم لخير أبداً.

وغَلَّقُوا الأبواب، وجاء حُيَيّ، وقال: وَيْحَك يا كعب! افْتَحْ لي، فما أنا إلا ابنُ عمك، وعلى عقيدتك، ولقد جئتُك فيما أرجو أن يكون فيه صلاحك وصلاحُ قومِك جميعاً.

---

(١) تقاعس: تأخر.

(٢) مناهضته: مقاومته.

قال كعب: إنك لأَشأَمُ الطَّلْعَة، مُتَّهَم النصيحة، مُزَوّر في الكلام. لقد عاهدتُ محمداً فلم أرَ منه إلا سِلْماً وأمْناً، وإلاّ صدقاً ووَفَاءً، ونحن ـ بني قريظة ـ نعيشُ اليوم في سلم من الأحقاد والأضْغان، وفي مأمن من المكَايِد والحروب.

قال حُيَيّ: إن محمداً ـ وإن عاهدك ـ ليس على دينك، وإنْ صانعك فهو على بُغْضٍ مِنْ جوارك، ويودّ لو أجلاك. ولقد جئتك بعزِّ الدَّهْر، وبهزيمة محمد على الأيام. هذه قريشٌ بقادتها وسادتها، ما زلت بها حتى جئتُ بها تحارِبُ محمداً، وهي الآن بمجتمع الأسيال في طريقها إلى المدينة. وهذه غطفان، وهؤلاء أَشْجَع في طريقهم إلى المدينة، وإنهم في حملتهم لصادِقُون، وإنهم من نُصْرتهم لواثقون.

قال كعب: جئتَني والله بذلِّ الدهر، وخيبة الرجاء، وبجَهَام[1] قد هَرَاقَ[2] ماءه، فهو يُرْعِد وَيُبْرِق ليس فيه شيء، دَعْنِي من حَرْبِ محمد، فما أنا بناقِض العهد، ولا حانثٍ في الميثاق.

ولكن حُيَيًّا ما زال بكَعْبٍ يزَوّر له الغَدْر، ويزخْرِفُ له الفُجُور، حتى لانت عريكَتُه، ونقضَ العهد، وخرج بقومه لقتالِ المسلمين!

* * *

ووفدت الأخبارُ على رسول الله ﷺ: أنَّ قريشاً قد جَمَّعَت جموعَها، وظاهَرَتْها غطفان، وتابعتها أشْجع، وأنهم جميعاً قد خرجوا لغَزوِ المسلمين بالمدينة.

فتلقَّى رسول الله ﷺ هذه الأخبار بحَزْمه وعزمه، وإيمانه ويقينه، وأمر المسلمين بحَفْرِ خَنْدَقٍ حَوْل المدينة.

وبينا المسلمون يتهيَّؤون لصدّ قريش ومَنْ حالفهم، إذ بِوَافِدٍ آخر يُلقي إلى رسول الله: أن بني قريظة قد نكثَتْ عهودَها، ونقضت وُعُودَها، وأنهم حَسِبُوها فرصة، وتخيَّلوها نُهْزَة، يطعنون من ورائها المسلمين.

وفي هذا الليل الحالكِ من الفرَقِ والفزَع، وفي ذلك العِثْير[3] المنعقد من الخوف

(١) الجهام: السحاب لا ماء فيه.
(٢) هراق الماء: صبه.
(٣) العِثير: الغبار.

والهلَع، ساق الله إلى المسلمين نُعيم بن مسعود ـ وهو رجل من رجال غطفان ـ وقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإنَّ قومي لم يعلموا بإسلامي، فَمُرْني بما شئتَ.

فقال رسول الله ﷺ: «**إنما أنتَ فينا رجل واحد، فخذِّل عنا إن استطعت؛ فإن الحَرْبَ خُدْعة**». وذهب نُعيم أعزلَ من سلاحه، مفرداً عن قومه، ولكن بما وهبه الله من قبَس الإيمان، وما نفخ فيه من رُوح اليقين؛ كان يحمل عزيمةً أمضى من السيف، وهمةً أثبتَ من الطَّوْد؛ ذهب لا يحملُ سيفاً، ولا يتنكَّب قوساً، ولكنه يرجو ـ بما رخّص له رسول الله ﷺ من خِداع، وبما أباح له من نَسْج خيوطِ الدّهاء ـ أن ينالَ من الأعداء ما لا يُنال بالسيوف، ويُصِيبَ فيهم ما لا تُصِيبه السهام.

ذهب إلى بني قريظة ـ وكان نديماً لهم في الجاهلية ـ وقال لهم: يا بني قُرَيظة، لقد عرفْتُم وُدِّي إياكُم، وَحُبِّي لخاصَّتكمُ وعامَّتكمُ. قالوا: صدقت، لستَ عندنا بمُتَّهم.

قال: إن قريشاً وغَطفان ليسوا مثلَكُم، البلد بلدكم، فيه أموالكُم وأبناؤكم ونساؤكم ولا تقدرون على أن تَحُولُوا منه إلى غيره، وإنَّ قريشاً وغطفان قد جاؤوا لَحْرب محمد وأصحابه، وقد ظاهَرْتُمُوهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره؛ فإن رَأَوها نُهْزَة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحِقُوا ببلادهم، وَخَلّوْا بينكم وبين الرجل، ولا طاقة لكم به إذا خَلا بكم.

وعلم المسلمونَ بما هم عليه، وبما وقعوا فيه: من تحزُّب الأحزَاب عليهم، وإحاطة العدو بهم من فوقهم، ومن أسفل منهم؛ فزاغت أبصارهم، وهَلعت قلوبُهم، وَعَظُمَ أمامَهم الكرب، واشتدّ البلاء، وأخذوا يظنُّون بالله الظنون.

أما المؤمنون فحسِبُوا أن هذه مِحْنة الله، وأنها امتحان لهم وابتلاءٌ لمقدار جهادهم؛ فهم يخافون الزَّلَل، ويخشون ضعفَ الاحتمال.

وأما المنافقون فقد قالت طائفة منهم: لقد كان محمد يَعِدُنَا أن نأخُذَ كنوزَ كسرى وَقَيْصر، وإن أحدنا لا يملك أن يذهبَ الآن لقضاء الحاجة ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[1].

---

(١) سورة: الأحزاب، الآية: ١٢.

وهَـمّت طائفة بالفرار، وإيقاعِ الضَّعْفِ في صفوفِ المسلمين، وجاءت تستأذنُ رسول الله ﷺ كذِباً ونِفاقاً، وخَـتْلاً[١] وخِداعاً، ويقولون: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ[٢] وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾[٣].

ووقـف رسـول الله ﷺ بيـن أعـداء مـن الأمـام، وأعـداء مـن الظَّهْـرِ، وأعـداء فـي الصفوف:

ولـو كـان هَمَّـا وَاحِـداً لاتقيتُـه ولكنَّـهُ هَـمٌّ وَثَـانٍ وثـالـث!

قالوا: وما الرأيُ؛ وقد عاهدناهم على أن نحارِبَ معهم، ونسلكَ في عداوة محمد سبيلَهم؟ قال: أنْ تأخذوا رُهُناً من أشرافهم، يكونون بأيديكم حتى تناجِزُوه؟ وبذلك تكفلون صِدْقهم ونصرتهم.

قالوا: لقد أشرتَ بالرأي. وتركهم نُعَيم بعد أن بثَّ خديعتَه فيهم، وذهب إلى قريش فقال لهم: لقد علمتُم وُدّي لكم وبُغْضي محمداً، ولقد بلغني أمرٌ قد رأيتُ حقًّا أنْ أُبلغَكم إياه؛ نصحاً لكم؛ وخشية عليكم، فاكتمُوه عني؛ تعلّموا أنَّ بني قريظة قد ندِمُوا على ما صنعوا بينهم وبين محمد، ولقد أرسلوا إليه: إنّا قد ندِمْنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أنْ نأخذَ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم، فنعطيكهم فتضرب أعناقَهم، ثم نكون معك على مَنْ بقي منهم حتى تستأصلهم؟ فأرسل إليهم؛ أنْ نَعَمْ؛ فإنْ بعثوا إليكم يلتمسون رُهُناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم أحداً.

ثم تركهم وذهب إلى غَطفان، وحدّثهم بمثل ما حدّث قريشاً، وانخدعوا له كما انخدعت قريش، وترك نعيم الجْمعَ ينظرُ ما يكون.

* * *

وفي ليلة السبت من شوال أوفدت قريش وغطفان عِكْرَمةَ بن أبي جهل في نفر منهم إلى بني قريظة يستنفرونهم للقتال.

---

(١) ختلاً: خداعاً.

(٢) عورة: غير حصينة يخشى عليها.

(٣) سورة: الأحزاب، الآية: ١٣.

قال عِكْرمة لرؤسائهم: إنَّا لسنا بدَارِ مقام، قد هلك الخُفُّ والحافر؛ فاغْدُوا للقتال، حتى نُنَاجزَ محمداً، ونفرغَ مما بيننا وبينه. فقالوا له: إنّ اليوم يوم سَبْت لا نعملُ فيه شيئاً، ولو فعلنا لعادَ الخِزْي والخِذْلان علينا، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتِلُ معكم محمداً حتى تُعْطُونا رُهُناً من رجالكم يكونون بأيدينا حتى نناجزَ محمداً؛ فإنا نخشى إنْ ضرَّسَتْكم الحَرْبُ، واشتدَّ عليكم القتال، أن تَشمَّروا[1] لبلادكم، وتتركونا ومحمداً، ولا طاقةَ لنا بقتاله.

ورجعوا إلى قريش وغَطفان، وحدّثوهم بما قالت بنو قرَيظة، فقالوا: والله إن ما حدّثكم به نعيم بن مسعود لحَقّ. وعادت الرسلُ إلى بني قريظة، وقالوا لهم: والله لا ندفَعُ إليكم من رجالنا أحداً، فإن كنتم تُريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا.

فقالت بنو قُريظة، حين انتهت إليها الرسلُ بهذا: والله؛ إن ما ذكره نُعيم لحقّ؛ وحينئذٍ وقع التخاذُل في صفوفِ الأحزاب، ودبَّ الرُّعْبُ في قلوبهم.

أما قريشٌ فقد بعث الله عليهم الريحَ في ليل شَاتٍ؛ فكَفَأت[2] قدورَهم، وطرحت آنيتهم، وزادت في تَخَاذُلهم، وقَفَلوا إلى مكة راجعين مُذْعورين؛ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[3].

ورجع رسول الله إلى الذين ظاهروا قريشاً وغطفان من بني قريظة، فوجدهم أيضاً قد قذف الله في قلوبهم الرُّعب، وأوقع عليهم الفَزَع، فانتقم منهم، وأنزلهم من حُصونهم وصَيَاصيهم، ثم عاقب رجالَهم بالقَتْل ونساءهم بالسبْي[4] والأسْر، وأورث الله المؤمنين أرضَهم وديارَهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾[5].

---

(١) تَشَمَّر: حَدَّ وتهيأ.
(٢) كفأ: كَبَّ وقلب.
(٣) سورة: الأحزاب، الآية: ٢٥.
(٤) السبي: الأسر.
(٥) سورة: الأحزاب، الآية: ٢٧.